على الطنطاوى وكتابه

في بلاد العرب

بقلم الأستاذ صلاح الدين المنجد

... وها هو ذا الطنطاوى يخرج كتابه الجديد بعد تردد ، وها هو ذا يُلقى بنفسه بين أيدى أهل النقد لينال ما يناله المؤلفون من نقد جارح وتقريظ ناعم ، ومن تهجم لاذع ومداعبة لينة ... ويرمى بكتابه إلى الناس ليقرأوه ويشرحوه ، ثم ليطنبوا فى مديحه أو يدركوا به ثأراً قديماً لهم ، فينالوه بالتمريض . فلنشمر إذن مع هذا الناس ولننقد هذا الكتاب كما ينقد الطائر الأرض لينبش منها حبها وزوانها . ولنحدث الناس عن الطنطاوى الذى يخشى الناس غضبه ، ويخافون على أنفسهم منه ، ولناق بأنفسنا بين يديه

وفكرى متقد ؛ ولكن يصعب علىّ تحديد هذا الفكر ورسمه على الورق باللغة التى أريدها ، فإن الفكر والشعور يتجمدان تماماً . نحن لا نملك بعد لغة مرنة ولا نحيا حياة أدبية صحيحة . إننا نعرف من المعانى عظاماً قد تسرب السوس إليها من قرون . لأننا فقدنا شهيتنا لتذوق طعم اللحم الطازج . لهذا السبب أميل إلى الطبقات الشعبية لأنها لم تشبع بعد ولا تزال على فطرتها وسذاجتها . فلعل الشعب يفهمنى »

صديقى العزيز توفيق ! حقاً ! اليوم لا يفهمك ويقدرك حق قدرك سوى بعض المستشرقين الذين فى وسعهم مطالعة أعمالك وتفهمها على وجه صحيح ، وكذلك فئة قليلة من المصريين المثقفين ؛ ولكن صبراً ستتطور أفهام الجماهير ، وستنمو لشعبك أسنان جديدة ؛ ويومئذ يقبلون على التهام آثارك الأدبية الشعبية

ثم تكلم الكاتب بعد ذلك عن شهرزاد وأهل الكهف وعودة الروح وحياة محمد ، ثم ختم مقاله بقوله : ومهما يكن من شىء فإن الذى أعتقده وأومن به أن توفيق الحكيم يستحق تعضيد العالم العربى ، فيقدر جهوده الفكرية حق قدرها ويعنى بتفهمها على وجهها الصحيح لييسر للشرق المضى فى السير نحو مثله الأعلى.

يتحدث عنا ما يشاء . فلقد تربصت طويلاً ، وحاولت أن أنقده كثيراً . ولكنى كنت فى كل مرة أغلب على أمرى . أما وقد أخرج الآن كتابه ، فلن أبطىء أبداً ، فقد ألقى بنفسه بين يدىّ ، وأصبح كتابه بين عينىّ . وليت شعرى أأمن صديق على نفسه عند ما أهدى إلىّ كتابه وسألنى أن أكتب عنه ما أشاء ! ...

لقد سمرت يا صديق مع كتابك طول هذه الليالى المظلمة التى فاجأنا بها هذا العام الوليد . وكنت أقرأ فيه فأسمع تلك النغمة الحزينة تارة والطروب أخرى التى كانت تتعالى من سطورك وكلماتك ، فتهيج حسى كما أهاجته تلك النغمة التى كان يحدثها المطر وهو يقرع زجاج النافذة ، ويتساقط على أوراق الليمون والبرتقال التى هزتها الريح المعولة وروّعها السحاب المتون . والحق أني استمعت إلى نغمتين حزينتين : نغمتك وأنت تصف مآسى هذا الوطن الباكى ، ونغمة المطر وهى تحدث الأوراق الذابلة . ثم خرجت من الكتاب وأنا أسيان نشوان ، طروب معجب .

فاسمح لى يا صاحب الرسالة أن أتحدث عما رأيت وما سمعت

لقد قرأت قولك فى مقدمة الكتاب إنك كنت فى حرب مع الحياة ، فذكرت بلدك هذا ، وكيف أنكرك ، فلقد اعتادت الشام أن تعظم الجاهل الغريب ، وتحطم النابغ القريب . فلما رأيت ما رأيت تركت دمشق تبتنى مصراً ، فعشت بها أمداً اتخذت فيه من الأماكن والناس أصدقاء لقلبك وأحبة لنفسك ، وأنفقت أيامك فيها فى دار العلوم طالباً وكلية الآداب مستمعاً ، وفى « الفتح » و « الزهراء » كاتباً ومحرراً ، وعند ذاك سحب الدين الخطيب سعيداً ومستفيداً . ثم بدا لك ... وعاودك الحنين إلى وطنك ، فمدت إليه فمينوك للصبيان معلماً ، وقدموا الجاهلين عليك ؛ فهزأت بهم وسخرت منهم ، وخرجت من بلدك تبتنى العراق فعلمت فى ثانوياتها الأدب ، ثم قصدت الحجاز وعبرت الصحراء ، ثم عدت إلى بغداد ، ثم رجعت إلى دمشق وإذا بهم يمكرون بك مرة أخرى

ذلك لأنك من هذا البلد ... ولأن هذا البلد قد اعتاد وأد أبنائه ...

عفواً يا بلدى الحبيب !

فتلك شيمة أبنائك ... يكرمون الغريب ولو كان جاهلاً ، ويفتحون له صدورهم ، ويوسعون له فى دورهم ، ويؤثرونه

على أنفسهم ... ويموتون هم من الجوع ... فإذا تولى عنهم رماهم بكل قبيح ، ولكنهم يصفحون عنه ، ويسمون لاستقبال غريب آخر ...

نعم ، تلك شيمتك وشيمة أبنائك يا بلدى ...

* * *

ولقد أعجبنى أنك ظهرت فى كتابك أديباً حقاً ، يهزك كل شىء ، وتحن إلى كل شىء ... والأديب الحق من إذا رأى شيئاً أثر فيه ، فحرك نفسه ، ودفعها إلى الكتابة . لقد طوفت فى ربوع الشام ... فحركت نفسك روائع دمشق ، هذه الزهرة الناعمة التى نبتت على أطراف الصحراء ، يسقيها بردى بدموعه ، ويحرسها قاسيون الجليل بنفسه ، والتى يسعى إليها الملوك ليتمتعوا بنظرة منها ، ويستنشقوا عطرها ... فوصفت ما رأيت وأبدعت. وقد أعرض قومك عن تلك الروائع ولم يحفلوا بها، ثم ذهبت إلى العراق ، فرأيت وسمعت ، وتذكرت الماضى المجيد يرقص على شطآن دجلة ، ويرتع فى جنبات بغداد ، فقلت عنه ما قلت ، ثم أوليت العروس حبك ... فلما رأيت الإيوان هاج حسك ، ثم زرت مصر من رأى ، فهاجت شجونك... وأنت فى كل مرة تكتب وتنعى. ثم ذهبت إلى الحجاز — فذكرت محمداً سيد العالم — عليه صلوات الله وسلامه ، ورأيت النور ينبثق من هاتيك النجود ، فيثمر الدنيا ... فذرفت دمعة على الماضى الفخم يواريه أبناؤه التراب ولا يحفظونه ، ويستبدلون بالعز ذلاً ، وبالحرية قيداً ، وبالسيادة عبودية . ثم ذكرت العقيق وأيامه، وسمعت الشعر الطروب والغناء الراقص والحب الرفاف ... فحننت ووصفت ، ثم عدت إلى بيروت فهمت على سيف هذا البحر الحبيب ، وشردت فى الجبال الخضر ووصفتها أيضاً ، وأنت فى كل مرة تذكر وتبكى ، وفى كل مرة تحن وتطرب ، وفى كل مرة تدع قطعة من قلبك هنا ... وقطعة منه هناك ...

فقل لى ما بقى من قلبك يا صديق !

لقد نثرته هنا وهناك ... « فى بلاد العرب » فكيف تعيش بدون قلب ؟ وكيف تحيا بدون فؤاد ؟

* * *

وميزة أخرى أعجبتنى ... ذلك أنك لست أديباً فقط ، ولكنك أديب إقليمى . والأدب المحلى ينقصنا يا صاحبى . وكما أن بمصر أدباً محلياً ، فيجب أن يكون مثله فى شامنا وعراقنا وحجازنا ، وأن تبدو فى كل أدب مظاهر القوم وشعورهم وعواطفهم . ومجموع هذه الآداب كلها يؤلف الأدب العربى فى القرن العشرين ، كما ألف الأدبَ العربى من قبل أدبُ الشام ، وأدبُ العراق ، وأدب الأندلس . ولو حاولنا أن نبحث عما أنتجه أدباء الشام فى أيامنا ، وما ظهر فيه أثر الشام جنة الله ، ومهبط السحر ، وينبوع الإلهام ، لوجدته قليلاً نادراً

أين من وصف سورية الجميلة الوادعة ؟

وأين من كتب عن سورية أم الأبطال ؟

وأين من أشاد بذكر الوطن ، فبكى آلامه ، ومجد أفراحه ، وحن إليه ؟ ...

أين الأدب الذى يبدو فيه غلظة نفوسنا عند الكريهة وصفاءها فى الأمن والسلم ؟

أين ... أين ... !

كل ذلك لن تجد منه إلا قسما واحداً عند أدبائنا كلهم ... أما أنت ... فعندك كل شىء ... فاهنأ فأنت « كاتب الوطن »

* * *

ولست فى كتابك أديباً دمشقياً، ولكنك أديب مسلم عربى. إنك لم تنس العراق فأشدت بأيامه الخوالى ، وبكيت بطله غازى ومجدت أباه فيصل ؛ ثم ذكرت فلسطين فوصفت بؤسها وجمالها ورجالها وجبل نارها ؛ ثم وصفت مصر وعظمتها ، وكتبت عن الحجاز ماضيها وحاضرها ...

فيا أهل الشام !

إذا أردتم أن تسمعوا الأغانى التى قيلت فى بلادكم ... وتعلموا أن ربوعكم ربوع شعر وبشر وعطر فاقرأوا هذا الكتاب

ويا أهل العراق !

إذا أردتم أن تسمعوا أناشيد حب لبلدكم ، عاشق لها ، بكى مليكها ، ومجّد بطلها ، وأشاد بماضيها ، فاقرأوا هذا الكتاب

ويا أهل مصر !

إذا أردتم أن تعلموا شيئاً عن هذه البلاد العربية ، وتروا ما فيها من جلال وجمال وما أصابها من ألم وأسى ، وتسمعوا أقاصيص هذه البلاد التى تهفو قلوبها إليكم ... فاقرأوا كتاب الطنطاوى الشامى المسلم العربى : « فى بلاد العرب »[1]

(دمشق) صدوح الدين الحمد

(١) وسنعود إلى نقد الكتاب من حيث اللغة والأسلوب والفن